مجلة فصل الخطاب Journal of Faslo el-khitab
ISSN:1071-2335/ E-ISSN:2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
مجلد 12، عدد رقم: 03، سبتمبر 2023، صص: 173- 188
تاريخ الاستلام(2023/01/05)تاريخ القبول (2023/09/12)تاريخ النشر (2023/09/30)

الأنساق المعرفية في كتاب أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني

The Cognitive Patterns in the Book 'Secrets of Rhetoric' by Abdul Qahar al-Jurjani

بوهند محمد صديق[1]، مهيدي منصور[2]
مخبر الخطاب الحجاجي أصوله ومرجعياته وآفاقه في الجزائر
[1] جامعة ابن خلدون تيارت (الجزائر)، mohamedsaddik.bouhend@univ-tiaret.dz
[2] جامعة ابن خلدون تيارت (الجزائر)، mehidi_m77@yahoo.fr

ملخص:
نروم في نروم في هذا البحث مقاربة الخطاب البلاغي لعبد القاهر الجرجاني في كتابه (أسرار البلاغة) .باعتماد المنهج الذي يقترحه ميشيل فوكو لاكتشاف الأنساق المعرفية المُشَكِّلَةِ للخطاب المعرفي (العلمي)، وذلك في محاولة اختبار صلاحية المنهج المعتمد في الدراسة على المتون العربية، وكذا قابلية تحليل الخطاب البلاغي في كتاب أسرار البلاغة وفق منهج و آليات إجرائية معاصرة. وقد انطلقنا من إشكاليات لعل أبرزها: إلى أي مدى سنستفيد من المنهج الفوكوي ومدى صلاحية تطبيقه على المدونات النقدية والبلاغية في التراث العربي ؟و ماهي الأنساق المعرفية التي تجلّت في خطاب عبد القاهر الجرجاني؟ وهل أثّرت تلك الأنساق في توجيه درسه البلاغي والإعجازي؟

كلمات مفتاحية: الأنساق المعرفية؛ ميشيل فوكو؛ الخطاب؛ أسرار البلاغة؛ الأركولوجيا.

Summary:
In this research, we seek to approach the rhetorical discourse of Abdul Qaher al-Jurjani in his book "Secrets of Rhetoric", by adopting

المؤلف المرسل: بوهند محمد صديق، الإيميل: mohamedsaddik.bouhend@univ-tiaret.dz

the approach proposed by Michel Foucault to discover the cognitive paradigms that constitute cognitive (scientific) discourse. It is an attempt to test the validity of the approach adopted in the study of Arabic texts, as well as the ability to analyze the rhetorical discourse in the book “Secrets of Rhetoric” according to a contemporary method and procedural mechanisms. We have started from issues, perhaps the most prominent of which are: To what extent will we benefit from the Foucauldian approach and the extent of its validity in applying it to critical and rhetorical codes in the Arab heritage? And what are the cognitive patterns that were evident in the speech of Abdul Qahar Al-Jurjani? Did these patterns influence the direction of his rhetorical and miraculous lesson?

Keywords: cognitive patterns; Michel Foucault; discourse; Secrets of Rhetoric; Archeology

1. مقدمة:

تعددت المناهج والطرائق التي اشتغلت على الخطاب بوصفه متتالية من الجمل التي تنشأ وتُقرأ في مقامات مختلفة، وهذا التعدد ليس نابعاً عن ترف معرفي اعتباطي، إنما مدار الأمر فيه هو جزئية البحث وقصور المنهج الواحد عن الإحاطة بكل جوانب الخطاب عامة والخطاب المعرفي خصوصاً. وقد حاولنا في هذه الأوراق البحثية مقاربة الخطاب من زاوية مختلفة وبمنهج تقِّل دراسة الخطابات به، وهو المنهج الأركيولوجي الذي اقترحه ميشيل فوكو للتنقيب في الأنساق المعرفية المُشَكِلَة للخطاب، عن طريق وصف الممارسة الخطابية وتأويل العناصر المعرفية المتجلية في خطاب ما، وكل هذا للإجابة على مجموعة من الإشكاليات التي تُلِحُّ على الباحث وتفرض نفسها وهي: ما هي الأنساق المعرفية في كتاب أسرار البلاغة؟ وهل يمكن مقاربة المتون التراثية باعتماد هذا المنهج؟ وما هي الأنساق المعرفية المشكلة لخطاب عبد القاهر الجرجاني في كتاب أسرار البلاغة؟.

وللإجابة على هذه الإشكاليات فقد انطلقنا بداية من تقديم مفهوم حول النسق المعرفي في شقّيه اللغوي والاصطلاحي، ثم وضحنا مفهوم الخطاب من منظور ميشيل فوكو باعتباره فيلسوفا له نظريته الخاصة في الخطاب تتميز عن الباحث اللساني والبلاغي، ومن بعد ذلك قدمنا المنهج الأركيولوجي الذي اقترحه ميشيل فوكو لمقاربة الخطاب، لنصل إلى

تحليل خطاب عبد القاهر الجرجاني ومقاربته وفق المنهج الأركيولوجي، وختمنا الأوراق البحثية بأهم النتائج المتوصل إليها.

2.مفهوم النسق المعرفي

1.2 لغة:

إذا تتبعنا معنى النسق كما جاء في المعاجم اللغوية نجد المعاني التي وضعت له في تلك المعاجم متقاربة إلى حد بعيد، ومن ذلك جاء في لسان العرب « النَّسَقُ من كل شيءٍ: ما كان على طريقة نظامٍ واحد، عامٌ في الأشياء، وقد نَسَقْتُهُ تَنْسيقاً، ويخفف ابن سيده: نَسَق الشيءَ ينْسُقُهُ نَسْقاً ونَسَّقه نظَّمه على السواء، وانتسق هو وتَناسَق... والنحويون يسمون حروف العطف حروف النَّسَقِ لأَن الشيء إذا عطفتَ عليه شيئاً بعده جَرى مَجْرًى واحداً.... وثَغْرٌ نَسَق، إذا كانت الأسنانُ مستوية، ونسق الأسنان انتظامها في النبتة وحسن تركيها، وخَرَزٌ نَسَق أي منتظم قال أبو زُبَيد:

بِجيدِ رِيْمٍ كَرِيمٍ زانَهُ نَسَقٌ *** يَكادُ يُلْهِبُه الياقوتُ إلهابا

والتَّنْسيقُ: التنظيم، والنَّسَق: ما جاء من الكلام على نظام واحد، والكلام إذا كان مُسَجَّعاً قيل: له نَسَق حسن».[1] وأغلب التعاريف في المعاجم اللغوية لا تخرج عن (النظام) والانتظام والترتيب، فالنسق ما حكمه نظام واحد وجاءت أجزاؤه مرتبة، وإذا أردنا تعريف النسق المعرفي لغوياً فهو انتظام المعرفة وتناسقها في مجال معرفي أو بحث باعتماد آليات إجرائية تعبِّر عن توجه فلسفي.

2.2 اصطلاحا:

يرتبط مفهوم النسق المعرفي بمجالات علمية مختلفة ويلتبس بمصطلحات متاخمة ومجاورة له مثل البنية المعرفية، النموذج، المرجع المعرفي... الخ، ولأن الدارسين في هذا المجال لم يقدموا مفهوما جامعا وشاملا للمصطلح بداية من واضعه ميشيل فوكو، الذي نجده يوسع في تقديم المفهوم، سنحاول توضيح مفهوم النسق المعرفي كما يلي:

يمكن عدُّ الأنساق المعرفية مجموعة «القواعد التي يمكن بفضلها لممارسة خطابية ما أن تنشئ زمن موضوعات ومجموعة من لاختيارات النظرية، وهي عناصر، لا تشكِّل علما ذا بنية فكرية محددة، ذلك أن منظومة علاقاتها أقل دقة بطبيعة الأمر، لكنها لا تمثل

كذلك معارف، يتكدس بعضها إلى جانب بعض تجد أصلها ومصدرها في التجارب والتقاليد والاكتشافات المتباينة»[2] فهي بمنزلة تراكم معرفي سابق عن وجود التنظير للمعرفة في العلوم الإنسانية، وهي التي ينطلق منها المنظِّر للخطاب المعرفي (العلمي) ليُنشئ منها –إضافة إلى النسق اللغوي- الخطاب المعرفي الموجّه بتلك الأنساق المعرفية.

والأنساق المعرفية ليست مجموعة المعارف التي تكون موضوع خطاب ما، ولا تنشأ داخله كذلك «فهي بمثابة السابق والمتقدم لما سوف ينكشف ويمارس عمله كمعرفة أو وهم، كحقيقة مقبولة أو خطأ ثم الوقوف عليه، أو كسب نهائي»[3] فهي التي تنظّم الأفكار داخل مجال معرفي معيّن، وتيّسر السبل لإدراك المعارف المستحدثة.

ويعدّ النسق المعرفي كذلك «نمطاً من النظام مختبئ أو غير متعقل، هو بمثابة الأرضية التي ينبثق عنها بالضرورة تصنيف الخبرات البشرية، ويظهر هذا النظام دائما كشرط لإمكانية المعرفة والتنظير، وهو بوجه عام يقوم بعمل القبلي التاريخي... »[4] فهذه الأنساق المعرفية هي مبدأ كل معرفة، وكل تنظير حاصل في حقبة زمنية، ومن سماتها التغيّر والتحول عبر التاريخ المعرفي لتتغير معها الخطابات.

والنسق في الخطاب هو المعرفة المشكلة له «فالمعرفة هي ما بإمكاننا أن نتحدث عنه داخل ممارسة خطابية تكون من ثم متميزة: هي الميدان المكوّن من مختلف الموضوعات التي قد تحصل أو لا تحصل في المستقبل على صفة العلمية... والمعرفة هي كذلك الفضاء الذي يمكن للذات أن تحتل فيه موقعا تتكلم منه عن موضوعات اهتمامها داخل خطاب معيّن... وهي كذلك حقل تناسق الملفوظات وتضايفها، فيه تظهر المفاهيم، تطبق وتحوّل»[5] وهو بمثابة الأساس والخلفة التي ينبثق منها الفكر وينتظم داخل الخطاب.

وفي النقد الأدبي مثلا فالأنساق المعرفية هي «مجموعة معارف مترابطة يتمسك بها تتعلق بأثر أدبي معيّن أو آثار أدبية أو فئة من الموضوعات، ويوجد لدى الناقد عدد من الأنساق المعرفية التي تتفاوت من حيث درجة ارتباطها تظهر بصورة معيّنة عن استعمال إطاره المنهجي »[6] وبهذا يكون النسق المعرفي في النقد الأدبي هو مجموعة الخبرات السابقة، والنماذج المعرفية التي توجّه الخطاب النقدي.

3.مفهوم الخطاب عند ميشيل فوكو

يظلّ مصطلح الخطاب زئبقي المفهوم غير واضح التحديد لأنه مرتبط بالدراسات في العلوم الإنسانية المختلفة، وقد وُجدت نظريات كثيرة حاولت التنظير لمفهومه من جوانب مختلفة (لغوية، نحوية، تداولية، فلسفية... إلخ)، وقد استقلّ كل مُنَظِرٍ بمفهوم خاص وِفق القاعدة المعرفية التي انطلق منها والنتائج التي كان يحاول الاستدلال لها.

يعدّ الخطاب مدخلا رئيسيا لفهم فلسفة ميشيل فوكو، فقد تردد هذا المصطلح في جلِ كتاباته، وشغل حيزاً كبيرا من اهتمامه، والقضايا التي عالجها والمنهج الذي اقترحه يشكّلُ نقط فارقة في الدراسات التي اهتمت بالخطاب الإنساني، لأنه اهتم بمفهوم الخطاب والعناصر المُشَكّلة للخطاب ومنهج الخطاب وسلطة الخطاب، والممارسات الخطابية وغير الخطابية، ولم يهتم في الخطاب بتمفصلاته اللغوية، أو الإقناعية ولا حتى الدلالية والقصدية،

إذا تتبعنا ورود مصطلح الخطاب في كتابات ميشيل فوكو نجده استعمله منذ كتابه الأول **"تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي"** حيث صرّح أن «التقليد الإنساني قد نظر إلى الجنون باعتباره جزءا من **عالم الخطاب**» [7] وهو بذلك ميدان للتحليل والدراسة، ويشكِّل معرفة خطابية أو لنقل نسقاً معرفياً يساهم في إنتاج الخطابات.

وفي كتابه الثاني ولادة الطب السريري تحدث في مقدمته عن الخطابات الطبية ووضّح الفروق الجوهرية بينها في مختلف الأزمنة، وأرجع سبب تلك الاختلافات إلى اختلاف المعرفة المُشَكِلَة للخطاب والسابقة عنه[8] وظلّ يتردد مصطلح الخطاب في كتب ميشيل فوكو (الكلمات والأشياء، نظام الخطاب، إرادة المعرفة... إلخ) إلى أن وصل إلى كتابه حفريات المعرفة الذي يعتبر خاتمة مشروعه البحثي، والذي وضّح فيه المفهوم الذي يراه للخطاب والمنهج المناسب لتحليل مختلف الخطابات، ويعتبر هذا الكتاب المهاد النظري لفلسفة ميشيل فوكو في الخطاب.

يرى ميشيل فوكو أن ما يمكننا ندعوه خطابا هو «مجموعة من العبارات بوصفها تنتمي إلى ذات **التشكيلة الخطابية**، فهو ليس وحدة بلاغية أو صورية قابلة لأن تتكرر إلى ما

لانهاية... بل هو عبارة عن عدد محصور من **العبارات (المنطوقات)** التي نستطيع تحديد شروط وجودها»[9] عبر التحليل الوصفي للخطاب،

ويُعرِّفه كذلك بأنه « **الميدان العام** لمجموع **المنطوقات**، وأحيانا أخرى مجموعة متميّزة من المنطوقات، وأحيانا ثالثة ممارسة لها قواعدها، تدلّ دلالة وصف على عدد معيّن من المنطوقات وتشير إليها»[10] فهو ليس الدلالات اللغوية التي تنشئها الذات المتكلمة، وليس الصورة التعبيرية عن الأفكار الذهنية، بل الخطاب عند ميشل فوكو يتّخذ مفهوما آخر كما يتضّح من التعاريف السابقة، ويتكون من عناصر يمكن تعريفها كالتالي:

1.3 المنطوق:

وهو أصغر بنية في الخطاب وهو جزء أساسي فيه، وقد استخدمه فوكو «إما ليشير به إلى عدد من المنطوقات... أو ليميّزه عن المجموعات التي يسميها الخطابات (مثل ما يتجزّأ عن الكل)، ويبدو المنطوق لأول وهلة كعنصر أخير، أو جزء لا يتجزّأ، قابل لأن يستقلّ بذاته ويقيم علاقات مع عناصر أخرى مشابهة له... المنطوق أبسط جزء في الخطاب»[11] وهو الوحدة الأولى فيه وسابق عنه ويمكنه أن يكوّن علاقات ارتباط مع مجموع المنطوقات المغايرة داخل الخطاب والتشكيلة الخطابية، كما أنه ليس متصفاً بالثبات.

2.3 التشكيلة الخطابية:

يمكن تحديد مفهوم التشكيلة الخطابية بأنها مجموعة من المنطوقات التي تتميّز وفق نظام معيّن داخل الخطاب، «فالمنطوق ينتمي إلى التشكيلة الخطابية، مثلما تنتمي الجملة إلى النص، القضية إلى مجموع استنباطي، غير أنه إذا كان انتظام الجملة يتحدد بقواعد اللغة، وانتظام القضية بقواعد اللغة، فإن انتظام المنطوقات يتحدد بالتشكيلة الخطابية ذاتها»[12] فعلم الطب مثلا لديه عدد من المنطوقات والرموز التي يتميز بها عن باقي ميادين الخطابات الأخرى، وتشير هذه المنطوقات إلى تشكيلة خطابية في مرحلة تاريخية محددة، وتتصف بالتجدد والتحول.

وتندرج التشكيلة الخطابية ضمن ما يسميه ميشل فوكو بالميدان الخطابي، فعلى عكس التعريفات التي وضعها غاستون باشلار وجورج كانغيلام لميدان المعرفة (ميدان العلوم الإنسانية، ميدان العلوم التقنية، ميدان العلوم الطبيعية) مثلا، يمكن تحديد

مفهوم ميدان الخطاب عند ميشيل فوكو «يتشكل أساسا من منطوقات فعلية، ويختلف عن التشكيلة الخطابية من حيث الحجم، ذلك أنه ميدان رحب أوسع من التشكيلة الخطابية، لا يُفهم إلّا في علاقته بميدان معرفي معيّن، قد يشمل علما من العلوم، أو مجموعة من العلوم المتحقّقة تاريخيّاً، لذلك فإنّ ميدان الخطاب هو المنطوقات كأحداث تاريخيّة خارج الفروع العلمية المتعارف عليها»[13]

3.3 الممارسة الخطابية

يُدرج ميشل فوكو إضافة إلى العنصرين السابقين الممارسة الخطابية التي هي «مجموعة من القواعد الموضوعية والتاريخية المعيّنة، والمحدّدة دومّا في الزمان والمكان، والتي حدّدت في فترة زمنيّة بعينها، وفي نطاق اجتماعي واقتصادي وجغرافي أو لساني»[14] وهي ليست نشاط الذات في إنتاج الخطاب ونثره، بل على العكس من ذلك يعتبر ميشيل فوكو Michele Foucoult فهو يرفض « الخطاب كظاهرة تعبيرية تترجم إلى الكلام تأليفات خارجة عنه، وبدلا من ذلك، يبحث فيه عن حقل انتظام مختلف مواقع الذاتية، فحينئذ لن يبق الخطاب تجليا لذات تفكر وتعرف وتقول ما تفكر فيه وما تعرفه، بل سيغدو مظهرا لتبعثر الذات وانفصالها عن نفسها»[15] وتندمج ضمن الوجود الموضوعي والمادي للقواعد الجاهزة والتي تتحكم في الذات عندما ترتبط بالخطاب.

فالممارسة الخطابية إذن لا تعتمد على نشاط الذات او المقدرة الشخصية لمؤلف الخطاب، بل تتحدّد بالقواعد الموضوعية في زمان ومكان معيّنين.

4.3 استر اتيجية الخطاب

يمكننا أن نصف علاقات الامتداد المتبادل بين عدة خطابات كلٌّ منها يتمتع باستقلاليته وخصوصيته، وذلك عن طريق تمييز ميدانه ومناهجه وأدواته «كل تلك العلاقات هي بمثابة **مبدأ تحديد**، يسمح داخل خطاب ما من الخطابات بعدد معيّن من العبارات أو لا يسمح بها، فثمة انسجامات مفاهيمية وتتابعات تعبيرية، ورموز وتنظيمات تتألف من موضوعات كان بإمكانها أن تظهر»[16] فهو السلطة أو الرقابة المحدِّدة للحدود التعبيرية داخل الخطاب والتي تجعل مختلف الخطابات في زمان ومكان محدد تشترك في استراتيجية معيّنة.

الملاحظ في عناصر الخطاب كما نظَّرَ لها ميشيل فوكو وحددها، أنها لا تجعل للذات موقعا داخل الخطاب إنما تعتبرها متبعثرة ضمن خطابات معاصرة لها وحدود استراتيجية، ويمكننا أن نلخِّص عناصر الخطاب عند فوكو في المخطط التالي:

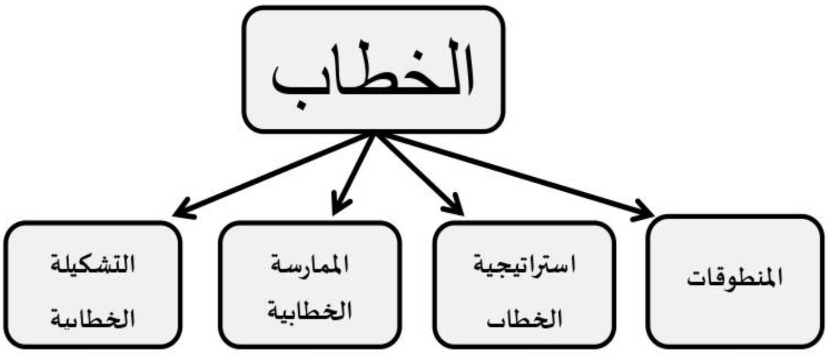

مخطط يوضح عناصر الخطاب كما حدّدها ميشيل فوكو

4. أركيولوجيا[17] الخطاب لدى ميشيل فوكو Michele Foucoult

بعد أن فصّل فوكو Foucoult في مفهوم الخطاب متجاوزا بذلك النظرة اللسانية والنحوية، ومُلغيا كذلك الذات الفاعلة في إنتاج الخطاب -كما أشرنا سابقا- أخذ يُنَظِّرُ للمنهج الذي يمكننا من تحليل الخطابات، وقد سمى منهجه بالمنهج الأركيولوجي Archéologie والذي تُرجم كذلك بـ "الحفريات"، والمتتبع لمؤلفات فوكو سيُلفي أنّ فوكو استعمل هذا المنهج منذ كتابه الأول "تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي" وفي كل مؤلفاته التي درس فيها مختلف الخطابات، وبشكلٍ أوضح في كتابه "الكلمات والأشياء"، لكن لم يكنْ بعدُ قد أرسى للمنهج إطاره النظري ولم يحدد له آلياته الإجرائية حتى استقرّ على وضع تحديد للمنهج في كتابه الأخير والذي حمَلَ عنوانه اسم المنهج "L'Archéologie Du Savoir" ويعدّ هذا الأخير الإطار النظري لفلسفة فوكو في الخطاب والمنهج.

والأركيولوجيا في معناها الاصطلاحي هي علم يدرس الآثار والترسبات التاريخية لحضارة ما وتصنيفها، ويقّرُ ميشيل فوكو أنه نقل هذا اللفظ بمضمون مغاير بالقول: «لقد استعملت هذا اللفظ للدلالة على وصف الوثيقة[الأرشيف] ولم أقصد به مطلقاً اكتشاف بداية أو الكشف عن عظام رميمة»[18] فهو لا يريد البحث عن لحظة انبثاق المعارف ولا في التاريخ المنفصل للعلوم كما فعل قبله غاستون باشلار Gaston Bachelard في

الابستمولوجيا وجورج كانغيلام Georges Canguilhem في تأريخهما للعلوم والبحث عن بداياتها واتصالها بالسابق عنها[19] .

يتميّز المنهج الأركيولوجي كذلك بأنه ليس «نقل منهج بنيوي إلى ميدان التاريخ، بل عرض مبادئ ونتائج تحول داخلي يتحقق في ميدان المعرفة التاريخي... ولا يتعلق الأمر باستخدام مقولات الكليّات الثقافية (سواء كانت رؤى العالم، أو أنواع أنموذجية، أو الروح المميّزة لبعض الحقب) قصد أن نفرض على التاريخ ورغماً عنه أشكال التحليل البنيوي»[20] فهو منهج يستعمل مقولات فوكو في الخطاب ونظرته إلى العناصر المُشَكلة له ليستطيع وصف الخطاب وتحليله.

يهدف المنهج الأركيولوجي إلى الكشف عن القاعدة التي تقوم عليها المعارف، ويتّخذ المعرفة بمعناها الواسع موضوعا له، من خلال « النظر إلى المنطوقات داخل الخطاب كأحداث خطابية ناتجة عن علاقات خارجية، أي ليست نابعة عن ذات، وكذلك البحث في التبعثر الماقبلي والسابق عن الخطاب والمتراكم فيه، والبحث عن الأسباب التاريخية لظهور الخطاب»[21] ومحاولة الكشف عمّا يقوله الخطاب من خلال وصف وتحليل منطوقاته وممارسته الخطابية وإرجاعه إلى ميدان تشَكُلِه.

يمكن إجمالا تحديد المنهج الأركيولوجي أنه منهج يُمكننا من تمييز الخطاب ومعرفة شروط ظهوره في التاريخ بعيدا عن فكرتي التسلسل التاريخي ومعاني المنطوقات، ووصف هيئة الخطاب، والبحث في شروط ظهور الخطاب وإرجاع الخطاب إلى الممارسات الخطابية أو إلى الميدان العملي الخاص به (دون إرجاعه إلى تاريخ المنشئ للخطاب أو فكره).

5. الأنساق المعرفية في كتاب أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني

نمتْ البلاغة نمواً فطرياً في شبه الجزيرة العربية، فقد امتاز العربي منذ الجاهلية بفصاحة اللسان وقوة البيان، والتعبير عن المعاني بأساليب متعددة، فكان العربي يعرف مراتب البيان على الجبلة، وبعد البعثة النبوية وما أحدثه القرآن الكريم من أثر في بيان العرب بما يحمله من أساليب البلاغة المعجزة والتي تحدّت بلغاءهم وشعراءهم، ومع اختلاط العرب بغيرهم من الأعاجم، واختلاف الفرق الكلامية في تأويل نصوص القرآن، احْتِيجَ إلى التنظير للبلاغة العربية ووضع علم به يُعْرَفُ بيان النصوص.

ولم يكن للدرس البلاغي العربي أن ينبثق من العدم، بل تكوّن من أنساق معرفية ساهمت في نشأته وتميّزه، وسنحاول فيما يلي توضيح بعض الأنساق المعرفية التي تجلّت في خطاب عبد القاهر الجرجاني بعدِّه أحد أبرز المُنَظِرين في الدرس البلاغي العربي **من خلال أبرزالنماذج** التي يمكن أن تكشف لنا عنها:

ألّف عبد القاهر الجرجاني (..- 471هـ) كتابين نفيسين في البلاغة هما "دلائل الإعجاز" و "أسرار البلاغة"، وهما كتابان بيّن فيهما أسرار الجمال الفني والإعجاز القرآني، وشرح فيهما فنون العرب في كلامها، ومعه وصل الدرس البلاغي العربي ذروة نضجه واكتماله (في زمانه) ومصدره كذلك.

1.5 المنطق والقياس

لعلّ أهمية قضية شغلت المنظِرين للبلاغة العربية وعلماء الكلام بمختلف فرقهم في القرنين الثالث والرابع هي قضية "اللفظ والمعنى"، فهي تأخذ أبعادا أكبر من معرفة أصل الكلام، بل استدلّ بها في الدفاع عن الأطروحة: هل القرآن كلام الله أم أنه مخلوق؟، وبهذا أخذ الخطاب في هذا الميدان حيزاً معرفياً يكشف عن أنساق معرفية أوجدت الاختلاف فيه، يقول في هذا الشأن: «إنّ من الكلام ما هو كما هو شريف في جوهره كالذهب الإبريز الذي تختلف عليه الصور وتتعاقب عليه الصناعات، وجُلُّ المعَوَّل فيه في شرفه على ذاته، وإن كان التصوير قد يزيد في قيمته ويرفع من قدره، ومنه ما هو كالمصنوعات العجيبة من موادَّ غير شريفة، فلها مادامت الصورة محفوظةً عليها لم تنتقص، وأثر الصناعة باقيا معها لم يبطل قيمةٌ تغلو، ومنزلة تعلو... حتى إذا خانت الأيام فيها أصحابها وفُجئتهم فيها بما يسلبها حسنها المكتسب بالصنعة، فلم يبق إلا المادة العارية من التصوير»[22] وهو بهذا لم يغفل ما للمعاني من مزية على الكلام، ولم ينتصر للألفاظ وحسن التصوير.

بمكننا القول أن عبد القاهر الجرجاني أقرّ بالثنائية الفلسفية (الشكل/ المحتوى)، فهو يرى أن المعنى (الأصل) الذي يقوم عليه المعنى الشعري والصورة الشعرية معنى يؤدي إلى معنى ثانٍ وهذا حكم منطقي إلى حدٍ بعيد.

ويقول في حدي التشبيه والاستعارة والتمثيل: «أما الاستعارة فهي ضرب من التشبيه، ونمط من التمثيل، والتشبيه قياس، والقياس يجري فيما تعيه القلوب، وتدركه العقول،

وتُسْتَفْتَى فيه الأفهام والأذهان، لا الأسماع والآذان»[23] فيمكننا إدراك مواطن التشبيه وسر بلاغته من خلال المنطق والعقل.

يرى عبد القاهر بعقله المنطقي أن التشبيه قياس، ويستدعي في حديثه عن التشبيه والاستعارة والتمثيل القياس، وهو علة جامعة، وهذا ما يبيّن أن **النسق المعرفي** الذي أقام عليه الجرجاني خطابه هو فلسفة أرسطو في الطبيعة (الهيولي/الصورة) وقد أقرّها عبد القاهر الجرجاني في ثنائية اللفظ والمعنى.

2.5 النحو العربي

نجد عبد القاهر الجرجاني في حديثه عن البيان أنّه لا يقوم باللفظ وحده يقول: « فلو أنّك عمدت إلى بيتِ شعرٍ أو فَصْلِ نثر فعددت كلماته عدًّا كيف جاء واتفق، وأبطلت نَضَدَهُ ونظامه الذي عليه بُنِيَ، وفيه أفرغ المعنى وأجرَيَّ، وغيّرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد ما أفاد...أخرجته من كمال البيان إلى مجال الهذيان، نعم »[24] وهذا ما يوضح بلاغة تأسيس الكلام على النظم.

والحديث عن تأليف الكلام يشكِّل نسقا معرفيا أفاده الجرجاني من ميدان النحو العربي الذي سبقه، ويمكن تحديد هذا النسق بما جاء في "**الكتاب**" لسيبويه في « باب الاستقامة من الكلام والإحالة »[25] فقد كان النسق النحوي إذاً موجها للخطاب البلاغي عنده، وذلك أن **الميدان** المشكل لكلا الخطابين واحد وهو الدرس اللغوي.

3.5 الدرس الإعجازي

إنّ الدرس البلاغي العربي كلّه جاء خدمة للقرآن الكريم ولبيان وجوه البلاغة فيه، ورفعه إلى مقام المعجز المتحدي للبشر أن يأتوا بمثله، وكذلك لبيان مقاصده والاستشهاد على المتشابه من آياته بالشعر الجاهلي، وردا على أصحاب الأهواء ممن حاولوا تأويله خدمة لمقاصدهم.

نجد إعجاز القرآن الكريم لدى عبد القاهر الجرجاني في حديثه عن المجاز (وقد شغل حيزا كبيرا في الدرس الإعجازي ومناظرات أصحاب الفرق الكلامية)، يقول في ردّه على المنكرين للمجاز «التنزيل كما لم يقلب اللغة في أوضاعها المفردة عن أصولها، ولم يُخرج الألفاظ عن دلالتها، وأن شيئا من ذلك إن زيد إليه ما لم يكن قبل الشرع يدلُّ عليه... ينبغي

أن تعرف أنه عزّ وجلّ لم يرضَ لنظم كتابه الذي سماه هدىً وشفاء، ما هو عند القوم الذين خوطبوا به خلافُ البيان، وفي حدّ الإغلاق والبعد عن التبيان، وأنه تعالى لم يكن ليُعجز بكتابه من طريق الإلباس والتعمية»[26] لأنّ القرآن كما وصفه الله تعالى عربيٌّ مبين.

ربط عبد القاهر الجرجاني الحديث عن المجاز بإعجاز القرآن الكريم، رغم أن خطابه يمكن تصنيفه في البلاغة العربية، لكن إعجاز القرآن الكريم شكّل نسقا معرفيا، تجلى لنا من خلال منطوقات عبد القاهر في **أسرار البلاغة**.

4.5 المذهب الكلامي:

قال تاج الدين السبكي «عبد القاهر الجرجاني النحوي المتكلم على مذهب الأشعري، الفقيه على المذهب الشافعي»[27] وقد شكّلت المذاهب الكلامية بنية معرفية لأصحابها، جعلت آراءهم في المجاز والقياس والتأويل تنحصر في دائرة ما اتفقت عليه جماعتهم الكلامية، وإذا عدنا إلى كتاب أسرار البلاغة نجد عبد القاهر يخوض في ما تشابه على الفرق الكلامية وخاضوا في تأويله.

في باب **"العناية بالمجاز تعصم المرء من الإفراط والتفريط في تأويل القرآن"** يقول الجرجاني: «ولو لم يجب البحث عن حقيقة المجاز والعناية به، حتى تُحصَّل ضروبه وتُضبط أقسامه، إلا للسلامة من مثل هذه المقالة، والخلاص ممَّا نحا نحو هذه الشبهة، لكان من حقّ العاقل أن يتوفر عليه، ويصرف العناية إليه...وللشيطان من جانب الجهل به مداخل خفية يأتيهم منها، فيسرق دينهم من حيث لا يشعرون، ويُلقيهم في الظلالة من حيث ظنوا أنه يهتدون...ومن التفريط قول قومٍ في قول الله تعالى: ﴿**الرَّحْمانُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَىَ**﴾ [طه، 5] ...وإنّ الاستواء إن حُمِل على ظاهره لم يصح إلى في جسم يشغل حيّزاً ويأخذ مكاناً، والله عزّ وجلّ خالق الأماكن والأزمنة، ومنشئ كل ما تصح عليه الحركة والنقلة، والتمكن والسكون، والانفصال والاتصال...»[28] وهذه قضية الصفات والتجسيم، من القضايا التي شغلت مناظرات أصحاب الملل والنحل.

نستنتج أن عبد القاهر الجرجاني في خطابه البلاغي لم يستطع الانفصال عن نسقه المعرفي المكوّن في عصره، وهو "الصفات الإلهية" والتي مثلت مبحثا دينيا كلاميا شغل عامة المسلمين.

هذه هي الأنساق المعرفية الكبرى التي تجلت لنا في خطاب **"أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني"**، ولا ندّعي أننا استطعنا حصر كل الأنساق إنما حسبنا في التمثيل لها، وفتح المجال للتوسع.

6. خاتمة

في ختام هذه الأوراق البحثية يمكننا إجمال نتائجها فيما يلي:

- يرتبط مفهوم النسق المعرفي بمجالات علمية مختلفة، ويعدّ نمطاً من النظام مختبأ أو غير متعقل، وهو بمثابة الأساس والخلفة التي ينبثق منها الفكر وينتظم داخل الخطاب.
- يعدّ الخطاب مدخلاً رئيسياً لفهم فلسفة ميشيل فوكو فهو يرى أن ما يمكننا ندعوه خطاباً هي مجموعة من العبارات بوصفها تنتمي إلى ذات التشكيلة الخطابية، فهو ليس وحدة بلاغية أو صورية قابلة لأن تتكرر إلى ما لانهاية... بل هو عبارة عن عدد محصور من العبارات التي نستطيع تحديد شروط وجودها عبر التحليل الوصفي للخطاب .
- تتمثل عناصر الخطاب عند فوكو من: المنطوقات، التشكيلة الخطابية، الممارسة الخطابية، الممارسة الخطابية.
- تتجلى أنساق معرفية كبرى في خطاب عبد القاهر الجرجاني يمكن إجمالها فيما يلي: المنطق والقياس، النحو العربي، المذهب الكلامي، الدرس الإعجازي

مراجع البحث وإحالاته.

1 - ينظر: ابن منظور: لسان العرب ، دار صادر، بيروت، 1414 هـ، ج 10، ص 352 -353.

2 - ميشيل فوكو: العلم والمعرفة الابستمولوجيا وحفريات المعرفة ، تر: سالم يفوت، مجلة الفكر العربي المعاصر، ع 41، ص 38.

3 - مرجع نفسه ، ص 38.

4 - ميشيل فوكو: الكلمات والأشياء، تر: مطاع صفدي وآخرون، مركز الإنماء القومي، لبنان،1990، ص 13 – 14.

5 - ميشيل فوكو: حفريات المعرفة، تر: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط 02، 1987ص 175.

6 - سمير سعيد حجازي: النظرية الأدبية ومصطلحاتها الحديثة، دار طيبة للنشر والتوزيع، 2004، ط01، ص113.

7 - ميشيل فوكو: تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، تر: سعيد بنكَراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط 01، 2006، ص 47.

8 - ينظر: ميشيل فوكو: ولادة الطب السريري، تر: إياس حسن، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، ط 01، 2018، ص 7 – 20.

9 - ينظر: ميشيل فوكو: حفريات المعرفة، ، ص 108.

10 - مرجع نفسه، ص 79.

11 - مرجع نفسه، ص 82.

12 - مرجع نفسه، ص 86.

13 - الزواوي بغورة: الخطاب بحث في بنيته وعلاقاته عند ميشيل فوكو، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، ط 01، 2015، ص88.

14 - ميشيل فوكو: حفريات المعرفة، ، ص 90.

15 - مرجع نفسه، ص 52.

16 - مرجع نفسه، ص 63.

17 - اخترنا هذا المصطلح عوضاً عن باقي الترجمات (حفريات، أثريات...الخ) وذلك أنه في نظرنا أصلح لأن يعبّر عن وصف مختلف للمفهوم، كما أنه مجرد نقلْ صوتي للمصطلح الأصلي مما يجنب الوقوع في مزلات الترجمة المتعددة للمصطلح، كما أن أغلب من تخصصوا في دراسة ميشيل فوكو يستعملون "الأركيولوجيا".

18 - ميشيل فوكو: مفهوم الأركيولوجيا، تر: الطاهر وعزيز، مجلة المناظرة، بابل للطباعة والنشر، الرباط المغرب، ع 4، 1991، ص 128.

19 - ينظر: جورج كانغيلام: دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها، تر: محمد بن ساسي، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، ط 01، 2007، ص 263 وما بعدها.

20 - ينظر: ميشيل فوكو: حفريات المعرفة، ص 15-16.

21 - ينظر : مرجع نفسه، ص 175 – 185.

22 - ينظر: عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، تح: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، مصر، ط 01،1991، ص 26

23 - مرجع نفسه، ص 20.

24 - ينظر: مرجع نفسه، ص 4.

25 - ينظر: سيبويه: الكتاب، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 03، 1988، ج1، ص25-26 .

26 - ينظر: عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص 394.

27 - بنظر: مقدمة المحقق: أسرار البلاغة، ص 15.

28 - ينظر: عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص 391-392.

مراجع ومصادر البحث:

1. ابن منظور: لسان العرب ، دار صادر، بيروت، 1414 هـ
2. ميشيل فوكو: العلم والمعرفة الابستمولوجيا وحفريات المعرفة ، تر: سالم يفوت، مجلة الفكر العربي المعاصر.
3. ميشيل فوكو: الكلمات والأشياء، تر: مطاع صفدي وآخرون، مركز الإنماء القومي، لبنان،1990.
4. ميشيل فوكو: حفريات المعرفة، تر: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب. ط 02، 1987.
5. سمير سعيد حجازي: النظرية الأدبية ومصطلحاتها الحديثة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط01، 2004 .
6. ميشيل فوكو: تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، تر: سعيد بنكَراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط 01، 2006.
7. ميشيل فوكو: ولادة الطب السريري، تر: إياس حسن، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، ط 01، 2018.
8. الزواوي بغورة: الخطاب بحث في بنيته وعلاقاته عند ميشيل فوكو، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، ط 01، 2015.
9. ميشيل فوكو: مفهوم الأركيولوجيا، تر: الطاهر وعزيز، مجلة المناظرة، بابل للطباعة والنشر، الرباط المغرب، ع 4، 1991.
10. جورج كانغيلام: دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها، تر: محمد بن ساسي، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، ط 01، 2007.

11. عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، تح: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، مصر، ط01، 1991 .